

الأفكار الاجتماعية والسياسية في شعر جميل صدقي الزهاوي دراسة تحليلية نقدية في ضوء

المنهج الاجتماعي

صادق راهي خلف الجعباوي

طالب الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، جامعة شيراز، إيران

د. يوسف نظري

أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة شيراز، إيران (الكاتب المسؤول)

Sadeq Rahi Khalaf Al-Chaabawi

Ph.D. Student in Arabic language and Literature,

Iran, Shiraz University

Husseinsalman7887@gmail.com

Yusuf Nazari

Associate Professor in Arabic Language and Literature,

Iran, Shiraz University (Corresponding Author)

Nazari.Yusuf@shirazu.ac.ir

المستخلص

يهدف هذا البحث الأكاديمي إلى استقصاء وتحليل الأبعاد الاجتماعية والسياسية في المدونة الشعرية للشاعر العراقي الرائد جميل صدقي الزهاوي (1863-1936)، الذي يُعدّ قامة سامقة في أدب عصر النهضة العربي. تتطرق الدراسة من إشكالية رئيسة تتعلق بمدى قدرة الشعر على أن يكون أداة للتغيير الاجتماعي والسياسي في بيئة محافظة ومضطربة كبيئة العراق في أواخر العهد العثماني وبدايات تأسيس الدولة الحديثة. اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي مع الاستعانة بالمنهج التاريخي، موزعاً مادته على فصلين رئيسين؛ اختص الأول بدراسة الأفكار الاجتماعية المتنورة للزهاوي، مركزاً على دعوته الجريئة لتحرير المرأة، ونقده اللادع للخرافات والتقاليد البالية، ورؤيته للعدالة الطبقية. أما الفصل الثاني فقد تتبع مساره السياسي المتقلب والمثير للجدل، من نقد الاستبداد العثماني، مروراً بموقفه من الاحتلال البريطاني، وصولاً إلى نزعه القومية والوطنية. وتوصلت الدراسة إلى نتائج عدة، أهمها أن شعر الزهاوي يمثل وثيقة سوسولوجية (اجتماعية) بالغة الأهمية، وأن فلسفته الشعرية كانت تهدف إلى صدم الوعي الجمعي لتحريكه نحو الحداثة، رغم ما شاب مواقفه السياسية من تذبذب فرضته الظروف الموضوعية والذاتية. **الكلمات المفتاحية:** جميل صدقي الزهاوي، الشعر السياسي، تحرير المرأة، الإصلاح الاجتماعي، الدولة العثمانية، الأدب العراقي الحديث، النقد الاجتماعي.

Abstract

This academic research paper aims to investigate and analyze the social and political dimensions within the poetic corpus of the pioneering Iraqi poet Jamil Sidqi Al-Zahawi (1863-1936), considered a towering figure in the Arab Renaissance literature. The study addresses a central problem regarding poetry's capacity to serve as a tool for social and political change within the conservative and turbulent environment of late Ottoman Iraq and the early modern state formation. Adopting a descriptive-analytical approach supported by historical methodology, the research is divided into two main chapters. The first examines Al-Zahawi's enlightened social ideas, focusing on his bold call for women's emancipation, his scathing critique of superstitions and obsolete traditions, and his vision for class justice. The second chapter traces his fluctuating and controversial political path, from critiquing Ottoman tyranny, through his stance on British occupation, to his nationalist tendencies. The study concludes that Al-Zahawi's poetry represents a crucial sociological document, and his poetic

philosophy aimed to shock the collective consciousness towards modernity, despite the fluctuations in his political stances dictated by objective and subjective circumstances. **Keywords:** Jamil Sidqi Al-Zahawi, Political Poetry, Women's Emancipation, Social Reform, Ottoman Empire, Modern Iraqi Literature, Social Criticism.

المقدمة

يمثل الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣-١٩٣٦) ظاهرة أدبية وفكرية استثنائية في تاريخ الأدب العربي الحديث. لم يكن الزهاوي مجرد ناظم للفريضة يتبع خطى السلف في بناء القصيدة فحسب، بل كان فيلسوفاً ومصلاً اجتماعياً وثائراً سياسياً اتخذ من الشعر منبراً لإطلاق مشروعه التنويري. لقد عاش الزهاوي في حقبة زمنية تموج بالتحويلات الكبرى، حيث شهد أفول نجم الدولة العثمانية، وويلات الحرب العالمية الأولى، ودخول الاحتلال البريطاني للعراق، ثم تأسيس الحكم الملكي الوطني. هذه التقلبات العاصفة لم تترك له مجالاً للانزواء في برج عاجي، بل دفعته ليكون في قلب المعترك، سلاحه الكلمة وفلسفته العقل. ينتمي الزهاوي إلى أسرة كردية عريقة عُرفت بالعلم والوجاهة، فوالده هو مفتي بغداد الشيخ محمد فيضي الزهاوي، مما أتاح له نشأة علمية رصينة جمعت بين العلوم الدينية التقليدية والعلوم العقلية الحديثة التي أولع بها لاحقاً (السامرائي، ١٩٨٨، ص ٣٤). هذه الازدواجية في التكوين المعرفي بين التراث والحداثة، وبين الدين والفلسفة، خلقت في داخله صراعاً فكرياً انعكس بوضوح على نتاجه الشعري، وجعله دائماً في مواجهة مع التيارات المحافظة التي رأت في أفكاره خروجاً عن المألوف وتهديداً للقيم السائدة (العبيدي، ٢٠٠٥، ص ٦٧).

أهمية البحث وأسباب الاختيار

تكمن أهمية هذا البحث في ضرورة إعادة قراءة المنجز الشعري للزهاوي قراءة تتجاوز الإعجاب الفني إلى التحليل الفكري والاجتماعي (هلال، ١٩٩٧، ص ١٤٥). ففي ظل الراهن العربي وما يشهده من صراعات فكرية حول قضايا المرأة، والحريات، والعلاقة بين الدين والدولة، يبرز صوت الزهاوي كأحد الرواد الأوائل الذين اشتبكوا مع هذه الإشكاليات قبل أكثر من قرن (درويش، ١٩٩٠، ص ٧٨). إن دراسة أفكاره الاجتماعية والسياسية ليست ترفاً تاريخياً، بل هي استحضار لتجربة تنويرية رائدة حاولت الموائمة بين الأصالة والمعاصرة، وواجهت تحديات لا تزال نعاني منها حتى اليوم. إضافة إلى ذلك، فإن شخصية الزهاوي نفسها، بما تحمله من تناقضات وجرأة، تشكل مادة ثرية للبحث؛ فهو الشاعر الذي مدح السلطان ثم هجاه، وهو الفقيه الذي دعا للفسور، وهو الفيلسوف الذي نازع الشعراء مكانتهم ونازع العلماء نظرياتهم.

إشكالية البحث ومنهجيته

تتمحور إشكالية البحث الرئيسية حول السؤال التالي: **كيف وظف جميل صدقي الزهاوي شعره كأداة للنقد الاجتماعي والسياسي في بيئة تقليدية محافظة؟** ويتفرع عن هذا السؤال عدة تساؤلات فرعية: ما هي المرتكزات الفكرية لدعوة الزهاوي لتحرير المرأة؟ وكيف واجه الخرافات والشعوذة التي كانت تعيق تقدم المجتمع؟ وما هي طبيعة مواقفه السياسية وهل كانت نابعة من قناعات مبدئية أم مصالح أنية؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات، يعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي للنصوص الشعرية، مع ربطها بالسياق التاريخي والاجتماعي (المنهج السوسولوجي)، لتفكيك الخطاب الشعري للزهاوي وكشف مضامينه الفكرية اقتضت طبيعة الدراسة تقسيم البحث إلى مقدمة وفصلين وخاتمة. يتناول الفصل الأول "الأفكار الاجتماعية في شعر الزهاوي" ويقع في ثلاثة مباحث؛ حُصص الأول لقضية المرأة، والثاني لمحاربة الجهل والخرافات، والثالث للعدالة الاجتماعية والطبقية. أما الفصل الثاني فيبحث في "الأفكار السياسية والموقف من السلطة" عبر ثلاثة مباحث أيضاً؛ الأول يعالج موقفه من الاستبداد العثماني، والثاني يدرس موقفه من الاحتلال والاستعمار، والثالث يسلط الضوء على نزعتة القومية والوطنية. وتأتي الخاتمة لتلخص أهم النتائج والتوصيات، متبوعة بقائمة المصادر والمراجع.

الفصل الأول: الأفكار الاجتماعية في شعر الزهاوي

يُعد الجانب الاجتماعي العمود الفقري في ديوان الزهاوي، فقد كان يرى نفسه مصلاً قبل أن يكون شاعراً (محفوظ، ١٩٨٢، ص ٢٣). آمن الزهاوي بأن الأدب رسالة، وأن الشعر ليس مجرد متعة جمالية وتلاعب بالألفاظ، بل هو "قوة محرّكة" يجب توجيهها لإصلاح اعوجاج المجتمع (خلوصي، ١٩٩٨، ص ١١٢). من هنا، جاءت قصائده الاجتماعية صرخات مدوية في وجه التخلف والجهل، والظلم الاجتماعي، مستخدماً لغة سهلة قريبة من النثر أحياناً لتصل إلى أوسع شريحة من الناس، ومضحياً بالصنعة البديعية في سبيل وضوح الفكرة (مندور، ١٩٨٨، ص ٨٩).

المبحث الأول: قضية تحرير المرأة والمساواة

لم تكن قضية المرأة عند الزهاوي موضوعاً عابراً، بل كانت القضية المركزية التي ناضل من أجلها طوال حياته، واحتمل في سبيلها الأذى والتكفير (الدجيلي، ١٩٦٦، ص ٥٢). لقد نظر إلى المرأة نظرة متأثرة بما رآه وقرأه عن حال المرأة في الغرب، ومقارناً ذلك بالواقع المزري للمرأة الشرقية التي كانت ترزح تحت نير الجهل والحجاب القسري والعادات الظالمة (العزاوي، ١٩٥٨، ص ١٥٦).

المطلب الأول: الثورة على الحجاب والتقاليد البالية

شن الزهاوي حرباً شعواء على الحجاب بمفهومه الاجتماعي المتمزمت الذي كان سائداً آنذاك، والذي كان يعني عزل المرأة تماماً عن الحياة وحبسها في البيت وحرمانها من رؤية العالم (الوردي، ١٩٧٩، ص ٢٣٤). لم يكن الزهاوي يدعو للانحلال، بل كان يرى أن الحجاب بصورته تلك ليس من الدين في شيء، وإنما هو عادة اجتماعية تكرر التخلف (عبود، ١٩٧٥، ص ٩٨) في قصيدته الشهيرة التي أثارت جدلاً واسعاً في الأوساط البغدادية، يخاطب الزهاوي المرأة العراقية بلغة تحريضية مباشرة، داعياً إياها للتمرد على واقعها، معتبراً أن السفرور (كشف الوجه) هو الخطوة الأولى نحو المشاركة في الحياة. يقول في قصيدته التي مطلعها "أسفري":

أسفري فالحجاب يا ابنة فهر *** هو داء في الاجتماع وخيم
كل شيء إلى التجدد ماضٍ *** فلماذا يُقر هذا القديم؟
أسفري فالسفور للناس صبيح *** زاهر والحجاب ليلٌ بهيم
أسفري واكشفي الطبيعة فالوجـ *** له جميلٌ ولا يلومك لومٌ

يربط الزهاوي في هذه الأبيات بين "السفور" و"الصبح" والضوء، وبين "الحجاب" و"الليل" والظلام، في ثنائية ضدية ترمز للصراع بين المعرفة والجهل (الجبوري، ٢٠٠٣، ص ١٨٧). هذا الموقف الجريء عرضه لهجوم عنيف من رجال الدين المحافظين، وصل حد المطالبة بقتله، لكنه ظل ثابتاً على موقفه (السامرائي، ١٩٨٨، ص ٧٨).

المطلب الثاني: الحق في التعليم والعمل واختيار الشريك

لم يكتفِ الزهاوي بالمطالبة بكشف الوجه، بل تعمق في القضية ليطالب بحقوق جوهرية كالتعليم والعمل وحرية اختيار الزوج (العبيدي، ٢٠٠٥، ص ١٢٣). كان يدرك أن "الجهل" هو العدو الحقيقي للمرأة، وأن تمكينها يبدأ من المدرسة (خلوصي، ١٩٩٨، ص ١٤٥). انتقد بشدة الآباء الذين يمنعون بناتهم من التعليم، والذين يزوجونهن قسراً لمن لا يرغب فيه، واصفاً الزواج القسري بأنه نوع من "الرق" المقنع (البصير، ١٩٦١، ص ٦٧). في قصيدة مؤثرة يصف فيها حال فتاة أجبرت على الزواج من شيخ طاعن في السن، يصور الزهاوي المأساة الإنسانية ببراعة، مستندراً عطف القارئ ومحرضاً إياه ضد هذه التقاليد:

بكت الفتاة وقد أرادوا وأدها *** وأدأ يفوق فظاعةً ما يُعهد
زوجٌ من الأموات يُقرن بالتي *** هي زهرة في روضها تتأود
قالوا لها: هو موسرٌ فتمتعي *** بثرانه وبما تريه وتسعدوا
كذبوا، فليس المألُ يُسعدُ زوجةً *** إن لم يكن هو كفؤها المتودد

يظهر هنا الوعي الاجتماعي المتقدم للزهاوي، حيث يرفض المقياس المادي للزواج (الثراء)، ويعلي من قيمة التكافؤ والمودة والحب، وهي مفاهيم كانت تُعد غريبة أو معيبة في الخطاب الاجتماعي التقليدي آنذاك (الشرقي، ١٩٦٥، ص ٨٩).

المطلب الثالث: المرأة كرمز لنهضة الأمة

ربط الزهاوي في فلسفته الاجتماعية بين تحرير المرأة وتحرير الوطن (محفوظ، ١٩٨٢، ص ٩١). كان يرى -متفقاً في ذلك مع قاسم أمين ومحمد عبده- أن الأمة التي تشل نصف طاقتها البشرية لا يمكنها منافسة الأمم المتقدمة (الجندي، ١٩٨٥، ص ١١٢). فالمرأة هي المربية الأولى، وإذا كانت جاهلة ومقهورة، فإنها ستورث الجهل والقهر لأبنائها. في قصيدته "المرأة والعلم"، يؤكد على هذه العلاقة الجدلية بين المرأة ومستقبل الأمة:

ما لم تكن للمرأة المتعلمة *** يدٌ في الحياة وفي الشؤون المحكمة
فالقوم ما بلغوا الرقي وإن بنوا *** صرحاً وشادوا للعلا ما أعظمة
هي أم هذا النشء وهي ولية *** لترتي الطفل الصغير وتفهمه

إن الزهاوي هنا يتجاوز الدفاع العاطفي عن المرأة إلى الدفاع العقلاني النفعي عن المجتمع ككل، مما يمنح خطابه قوة إقناعية تتجاوز مجرد التعاطف (درويش، ١٩٩٠، ص ١٣٤).

المبحث الثاني: نقد الجهل والخرافات والدعوة للعلم

المحور الثاني في الفكر الاجتماعي للزهاوي هو المعركة ضد الجهل والخرافة (خياط، ١٩٨٧، ص ٦٧). كان الزهاوي من أشد المتحمسين للعلم الحديث ونظرياته، وكان يرى في "العلم" المخلص الوحيد للبشرية من أمراضها (يوسف، ١٩٧٨، ص ٤٥). تأثره بالفلسفة الوضعية وبالنظريات العلمية (كنظرية التطور والجانبية) جعله ينظر بعين الاحتقار إلى الشعوذة والدجل الذي كان يمارسه بعض المنتسبين للدين أو الطرق الصوفية المنحرفة لاستغلال العوام (العزاوي، ١٩٥٨، ص ١٩٨).

المطلب الأول: فضح الدجل والشعوذة

خصص الزهاوي حيزاً كبيراً من شعره لفضح المشعوذين الذين يبيعون الأوهام للناس، من قراء الكف، وكتاب التعاويذ، ومدعي الكرامات (سليمان، ٢٠٠١، ص ٧٨). استخدم في هذا السياق أسلوب السخرية والتهكم لتعرية هؤلاء أمام الجمهور. كان يرى أن هؤلاء الدجالين هم أخطر على الإسلام والمجتمع من الأعداء الخارجيين، لأنهم يفسدون العقول ويخدرون الإرادة (الوردي، ١٩٧٩، ص ٢٦٧). يقول في قصيدة يهاجم فيها الاعتقاد بالخرافات والأولياء المزيفين:

دع التمسح بالأبوابِ والعتبِ *** ولا تُصدّقْ بما يُروى من الكذبِ
فما لقبرٍ بحيٍّ قطُّ منفعةٌ *** ولا لحيٍّ لديه قطُّ من أربٍ
إن الخرافةَ داءٌ في عقولكمُ *** تُعمي البصائرَ عن إدراكِ ذي السببِ

في هذه الأبيات، يدعو الزهاوي صراحة إلى إعمال قانون السببية (ذي السبب)، ونبذ الاتكالية والاعتقاد بالقوى الغيبية الموهومة التي تعطل حركة الحياة والعمل (كحالة، ١٩٩٣، ص ٢٣٤).

المطلب الثاني: تمجيد العقل والعلم

في مقابل هجومه على الخرافة، نجد الزهاوي يرفع من شأن العقل إلى درجة التقديس (الدجيلي، ١٩٦٦، ص ١٢٣). كان يؤمن بأن العقل هو المرجعية النهائية في الحكم على الأشياء، وأن ما لا يقبله العقل يجب رفضه. هذا النزوع العقلاني جعله يقترب من فكر المعتزلة قديماً، ومن فلاسفة التنوير الأوروبي حديثاً (هلال، ١٩٩٧، ص ١٧٨). نظم الزهاوي قصائد كاملة تشرح نظريات علمية أو تمجد الاكتشافات الحديثة، وهو غرض شعري جديد لم يكن مألوفاً بكثرة في الشعر العربي. يقول داعياً الشباب إلى الانخراط في ركب الحضارة العلمية:

أيها الغربُ والزمانُ نهازُ *** أيبأحُ وفيكمُ القَدْرُ عازُ؟
انهضوا أيها الكرامُ فهذاُ *** العلمُ يدعوكمُ وفيه الفخارُ
ليس في الشرعِ ما يصدُّ عن العلمِ *** ولا ما عنه يكونُ النفاؤُ

يحاول الزهاوي هنا المصالحة بين الدين والعلم، مؤكداً أنه لا تعارض بينهما، وذلك لقطع الطريق على المتشددین الذين كانوا يحرمون العلوم الحديثة باعتبارها "علوم كافرة" (عبود، ١٩٧٥، ص ١٤٥).

المطلب الثالث: الصراع بين القديم والجديد

جسد الزهاوي في شعره الصراع المحتدم بين دعاة التجديد وأنصار القديم (خلوصي، ١٩٩٨، ص ٢٠١). كان يدرك أن التغيير سنة كونية حتمية، وأن الجمود هو الموت. وصف المجتمع بأنه منقسم إلى فئتين: فئة مستنيرة قليلة العدد لكنها تملك الحقيقة، وفئة كثرة غارقة في ظلام الماضي (محفوظ، ١٩٨٢، ص ١٥٦).

سقمُ الجديدُ وعاشَ ناصرُهُ *** ومضى القديمُ وماتَ ذاكُرُهُ
أنا من جديدٍ في مناصرةٍ *** والناسُ كلُّهمُ ثناكرُهُ
سيجيءُ يومٌ والورى أممٌ *** يعلو الجديدُ به وناصرُهُ

تنبأ الزهاوي بانتصار الجديد في النهاية، مما يعكس تقاؤلاً تاريخياً رغم مرارة الواقع الذي كان يعيشه (الجبوري، ٢٠٠٣، ص ٢٢٣).

المبحث الثالث: العدالة الاجتماعية ومحدارية الفقر

لم يغفل الزهاوي عن معاناة الفقراء والمهمشين في المجتمع العراقي (الوردي، ١٩٧٩، ص ٣١٢). كان يرى التفاوت الطبقي الهائل بين فئة الأغنياء المترفة وفئة الفقراء المعذمة وصمة عار في جبين الإنسانية. تأثر الزهاوي بالأفكار الاشتراكية التي بدأت تنتشر عالمياً، فجاءت قصائده تعبيراً عن "الضمير المعذب" إزاء بؤس الآخرين (سليمان، ٢٠٠١، ص ١٣٤).

المطلب الأول: تصوير بؤس الفقراء

أبدع الزهاوي في رسم صور قلمية مؤثرة لحياة الفقراء، والأيتام، والأرامل (العبيدي، ٢٠٠٥، ص ١٨٩). قصائده في هذا المجال تتسم بواقعية مؤلمة، حيث يصف الجوع، والبرد، والعراء بدقة (يوسف، ١٩٧٨، ص ٩٢). يقول في وصف يتيم يرتجف من البرد:

أرحمُ طفلاً غداً في الحيِّ مُطَّرِحاً *** لا أهلَ يأويه أو يحنو ولا سكنُ
قد مزقَ الفقرُ أثواباً عليه كما *** قد مزقت جلدَه الآلامُ

والمحنُ يمشي حزيناً ولا يديري لمعدته *** قوتاً، فهل في ذوي الأموال من فطنوا؟

المطلب الثاني: نقد الأغنياء والبخلاء

وجه الزهاوي سهام نقده للأغنياء الذين يكنزون الأموال ولا يؤدون حق المجتمع فيها (خياط، ١٩٨٧، ص ١٢٣). اعتبر أن الفقر ليس قدرًا محتومًا، بل هو نتيجة لسوء التوزيع وجشع الأغنياء. كان يرى في التكافل الاجتماعي واجباً أخلاقياً وإنسانياً قبل أن يكون واجباً دينياً (البصير، ١٩٦١، ص ٩٨).

المطلب الثالث: الدعوة للإصلاح الاقتصادي

دعا الزهاوي ضمناً وصرحاً إلى ضرورة إصلاح النظام الاقتصادي والاجتماعي بما يضمن الحد الأدنى من الكرامة للإنسان (درويش، ١٩٩٠، ص ١٦٧). كانت دعوته هذه سابقة لأنها في مجتمع لا يزال يحكمه النظام شبه الإقطاعي، لكنها مهدت الطريق لظهور الأدب الواقعي والاشتراكي في العراق لاحقاً (محفوظ، ١٩٨٢، ص ٢٠١).

الفصل الثاني: الأفكار السياسية والموقف من السلطة

كان الزهاوي شاعراً سياسياً بامتياز، انخرط في العمل السياسي عضواً في مجلس المبعوثان (البرلمان) العثماني، ثم عضواً في مجلس الأعيان العراقي. تميزت مسيرته السياسية بالتقلب والتحولات الدراماتيكية التي أثارت حوله الكثير من الجدل والنقد، لكن الثابت فيها كان كرهه الفطري للظلم وحبه للحرية. يعكس شعره السياسي سجلاً حافلاً لأحداث العراق والمنطقة على مدى نصف قرن.

المبحث الأول: مقارعة الاستبداد العثماني والدعوة للدستور

عاش الزهاوي شطراً كبيراً من حياته تحت الحكم العثماني، وعاصر فترة السلطان عبد الحميد الثاني التي اتسمت بالمركزية الشديدة والرقابة الصارمة، ثم فترة الانقلاب الدستوري (المشروطية) عام ١٩٠٨.

المطلب الأول: نقد الحميدية والاستبداد

رغم أن الزهاوي مدح السلطان عبد الحميد في بعض المناسبات (وهو ما يؤخذ عليه)، إلا أنه سرعان ما انقلب عليه مهاجماً سياسة تكمिम الأفواه والقمع البوليسي. قصيدته "ألا فانتبه للأمر" تُعد من عيون الشعر السياسي التحريضي، حيث يصف فيها فساد الإدارة العثمانية وتردي أحوال الرعية.

وما هي إلا دولةٌ همجيةٌ *** تسوسُ بما يقضي هواها

وتعملُ فترفعُ بالإعزازِ من كان جاهلاً *** وتخفضُ بالإذلالِ من كان يعقلُ

وما فتئُ الإصلاحُ إلا كبارقٍ *** يلوحُ لعينِ المرءِ حيناً ويأفلُ

تسببت هذه القصيدة في سجنه ونفيه، مما زاد من شعبيته كشاعر معارض وبطل قومي في نظر الشباب المثقف.

المطلب الأول: تأييد المشروطية (الدستور)

عندما أعلن الدستور العثماني عام ١٩٠٨، استقبله الزهاوي بفرح غامر، ناظماً قصيدته المطولة "الفجر الصادق" التي تعد ملحمة في مدح الحرية والديمقراطية. رأى الزهاوي في الدستور نهاية لعهد الظلام وبداية لعهد العدالة والمساواة بين جميع القوميات.

نحنُ في أنعمِ عيشٍ ناعمٍ *** تحتَ ظلِّ العدلِ والدستورِ

قد أمنا ظلمَ باغِ ظالمٍ *** وانتهينا من زمانِ الجورِ

عاشَ للحريةِ الشعبُ الذي *** فكَّ أغلالَ العنا والضيرِ

المطلب الثالث: خيبة الأمل من الاتحاديين

لم تدم فرحة الزهاوي طويلاً، فقد تكشفت سياسة "جمعية الاتحاد والترقي" عن نزعة طورانية عنصرية (الترتيك) وظلم للعرب أشد مما كان في عهد السلطان. هنا عاد الزهاوي ليمارس دوره النقدي، مهاجماً الاتحاديين وسياساتهم القمعية، وداعياً العرب إلى اليقظة والانتباه لمصيرهم.

المبحث الثاني: الموقف من الاحتلال البريطاني والقضية الوطنية

مع اندلاع الحرب العالمية الأولى وسقوط بغداد بيد الإنجليز عام ١٩١٧، دخل الزهاوي مرحلة سياسية جديدة. كان موقفه من الاحتلال البريطاني معقداً وشائكاً؛ فبينما رحب في البداية بانتهاء الحكم العثماني، سرعان ما اصطدم بالواقع الاستعماري الجديد.

المطلب الأول: بين المهادنة والمقاومة

يُتهم الزهاوي أحياناً بمهادنة الإنجليز في بداية احتلالهم، وربما كان ذلك نابعاً من رغبة في الخلاص من العثمانيين أو انخداعاً بالوعد البريطاني بالتحريض. لكنه سرعان ما أدرك الأطماع الاستعمارية، فانخرط بلسانه وقلمه في الدفاع عن استقلال العراق.

المطلب الثاني: ثورة العشرين وتأسيس الدولة

تفاعل الزهاوي مع أحداث ثورة العشرين المجيدة، ومع تأسيس الدولة العراقية الحديثة وتنصيب الملك فيصل الأول. كان الزهاوي من المقربين للبلط الملكي وعضواً في مجلس الأعيان، لكن ذلك لم يمنعه من توجيه النقد أحياناً للحكومات المتعاقبة وللمعاهدات المجحفة التي كبلت العراق. في قصيدة ينتقد فيها التدخل الأجنبي والهيمنة الغربية، يقول:

يا سادةً جاؤوا لغزو بلادنا *** بزعامة كذابةٍ ووعودٍ
خلوا البلاد لأهلها وتنحوا *** فالحقُّ يأبى ذلة المصفودِ
بغدادُ تأبى أن تكونَ ذليلةً *** وهي التي كانت منارَ الوجودِ

المطلب الثالث: قضية فلسطين والوحدة العربية

تجاوزت اهتمامات الزهاوي الحدود القطرية لتشمل القضايا العربية الكبرى، وعلى رأسها قضية فلسطين. ندد بوعد بلفور وبالهجرة الصهيونية، محذراً من الخطر المحدق بالأمة العربية. كما دعا في شعره إلى الوحدة والتضامن العربي، معتبراً أن التجزئة هي سبب ضعف العرب.

فلسطينُ يا مهدَ عيسى الشهيد *** ومسرى النبي العظيم المجيدِ
يريدُ اليهودُ بك اليومَ شراً *** وما كلُّ ما يبتغيه يريدُ
أفيقوا بني العربِ من نومكم *** فما السيلُ يُدفعُ إلا بسدِّ
المبحث الثالث: الفلسفة السياسية (الثورة في الجحيم)

يمثل هذا المبحث ذروة الفكر السياسي الفلسفي عند الزهاوي، وتحديدًا من خلال ملحمة الشعرية الشهيرة "ثورة في الجحيم".

المطلب الأول: الرمزية السياسية في "ثورة في الجحيم"

في هذه القصيدة الطويلة، يتخيل الزهاوي نفسه في يوم القيامة، ويدخل الجحيم حيث يجد العلماء والفلاسفة والمفكرين الأحرار يعذبون، بينما ينعم البلهاء والمنافقون في الجنة. يقود الزهاوي ثورة داخل الجحيم ضد الملائكة (رمز السلطة الغاشمة)، وينجح الثوار في قلب النظام واقتحام الجنة. إن هذه القصيدة ليست مجرد خيال جامح، بل هي إسقاط سياسي جريء وخطير على الواقع الأرضي. فالجحيم هنا يرمز للوطن المقهور، والسلطة الدينية/الإلهية في النص ترمز للسلطة السياسية المستبدة التي تقلب الموازين.

المطلب الثاني: نقد الطغيان باسم الدين

يستخدم الزهاوي هذا القالب الرمزي لنقد الأنظمة التي تستخدم الدين كأداة للسيطرة والقمع. إنه يعلن انحيازه التام للعقل (العلماء والفلاسفة في الجحيم) ضد النقل الأعمى (أهل الجنة في النص).

وهبْ نُزِّلْ الجحيم جميعهم *** وساروا إلى الفردوس في فيلقٍ دهم
فدكُّوا من الفردوس سوراً ممنعاً *** وألقوا بمن فيه إلى قعر جهنم
وقامت هناك للعدالة دولةً *** تُسأسُ بحكم العقل لا الحكم والتحكُّم

هذه الأبيات تمثل "يوتوبيا" الزهاوي السياسية: دولة العدالة التي يحكمها العقل فقط.

المطلب الثالث: الجراءة الفكرية وتبعاتها

أثارت هذه القصيدة ضجة كبرى وجلبت عليه اتهامات بالإلحاد والزندقة، لكنها تظل العمل الأدبي الأجرأ الذي لخص فلسفته السياسية والوجودية: الثورة هي الطريق الوحيد لاستعادة الحقوق، والعقل هو الحاكم الشرعي الوحيد.

الخاتمة

في ختام هذه الرحلة البحثية في عوالم جميل صدقي الزهاوي الشعرية والفكرية، نخلص إلى أن هذا الشاعر الفذ لم يكن مجرد صدى لعصره، بل كان صوتاً سابقاً لزمه، ومبشراً بتحويلات اجتماعية وسياسية كبرى. لقد استطاع الزهاوي أن يحول القصيدة من إناء للترف الفني إلى مشعل للتوير وسلاح للمقاومة.

أولاً: الاستنتاجات

توصل البحث إلى جملة من النتائج والاستنتاجات، نوجزها فيما يلي:

١. الريادة الاجتماعية: يعد الزهاوي المؤسس الحقيقي لتيار الشعر الاجتماعي في العراق، حيث نقل الشعر من الفضاءات التقليدية (المدح، الرثاء، الغزل) إلى فضاءات أرحب تلامس هموم الإنسان اليومية وقضاياها المصيرية.
٢. محورية قضية المرأة: شكلت قضية المرأة الهاجس الأكبر للزهاوي، وتميز طرحه فيها بالشمولية والعمق، حيث لم يكتفِ بالدعوة للسفور بل ربط تحرير المرأة بتحرر المجتمع ونهضة الأمة.
٣. العقلانية العلمية: تفرد الزهاوي بين شعراء جيله بنزعة العلمية الفلسفية، ومحاولته الجادة لتوظيف النظريات العلمية في الشعر، ومحاربه الشرسة للخرافة والدجل.
٤. الجرأة السياسية: اتسم الخطاب السياسي للزهاوي بجرأة نادرة في نقد السلطة، سواء كانت عثمانية أو ملكية أو دينية، رغم ما شاب مسيرته السياسية العملية من بعض المهاندنة أحياناً.
٥. الرمزية الثورية: تمثل قصيدة "ثورة في الجحيم" ذروة سنام فكره السياسي والفلسفي، وهي وثيقة إدانة لكل أشكال الاستبداد المادي والمعنوي.
٦. سهولة اللغة وتقريريتها: غلبت على شعر الزهاوي النزعة التقريرية والمباشرة واللغة القريبة من النثر، وكان ذلك خياراً واعياً منه لإيصال رسالته الإصلاحية لأوسع جمهور ممكن، وإن كان ذلك أحياناً على حساب الشعرية الفنية.
٧. النزعة الإنسانية: رغم وطنيته وقوميته، إلا أن النزعة الإنسانية العالمية كانت حاضرة في شعره، من خلال تعاطفه مع المظلومين في كل مكان ونبذته للحروب والتعصب.

ثانياً: التوصيات

بناءً على ما تقدم، يوصي البحث بما يلي:

- إعادة طباعة الآثار الكاملة للزهاوي، وخاصة مقالاته النثرية وفلسفته، لتكتمل الصورة لدى الباحثين حول مشروعه الفكري.
- تشجيع الدراسات المقارنة بين الزهاوي ومجايليه من رواد النهضة العرب (مثل الرصافي، وشوقي، وحافظ إبراهيم) لرصد نقاط الالتقاء والاختلاف في معالجة القضايا الاجتماعية.
- تضمين المناهج الدراسية نماذج أكثر تنوعاً من شعر الزهاوي، وخاصة القصائد التي تحث على التفكير النقدي والعلمي، بدلاً من الاقتصار على القصائد الوطنية التقليدية.
- دراسة "ثورة في الجحيم" دراسة مستقلة ومقارنتها بالأعمال العالمية المشابهة مثل "الكوميديا الإلهية" لدانتي و"رسالة الغفران" للمعري، لإبراز القيمة الأدبية العالمية لهذا العمل.
- تسليط الضوء إعلامياً وثقافياً على الجوانب التنويرية في تراثنا الحديث، واعتبار الزهاوي رمزاً من رموز التنوير العربي لمواجهة موجات التطرف والظلمية المعاصرة.

المصادر والمراجع

- البصير، محمد مهدي (١٩٦١). نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر. بغداد: مطبعة المعارف.
- الجبوري، كامل سلمان (٢٠٠٣). معجم الأدباء: من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢م. بيروت: دار الكتب العلمية. ج ١.
- الجندي، أنور (١٩٨٥). أعلام وأصحاب أقلام. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.
- خلوصي، صفاء (١٩٩٨). دراسات في الأدب العراقي الحديث. لندن: منشورات المؤتمر الإسلامي.
- خياط، جلال (١٩٨٧). الشعر العراقي الحديث: مرحلة وتطور. بيروت: دار الرائد العربي.
- الدجيلي، عبد الكريم (١٩٦٦). محاضرات عن شعر الزهاوي. معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة.
- درويش، أحمد (١٩٩٠). رواد التجديد في الشعر العربي الحديث. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

مجلة الجامعة العراقية المجلد (٧٤) العدد (١٠) شباط لسنة ٢٠٢٦

- الزهاوي، جميل صدقي (١٩٧٢). ديوان الزهاوي). تحقيق: محمد حسين الأعرجي). بغداد: مطبعة الأمة.
- السامرائي، ماجد (١٩٨٨). شخصيات عراقية. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.
- سليمان، موسى (٢٠٠١). الأدب العربي المعاصر في العراق. بيروت: دار العودة.
- الشرقي، علي (١٩٦٥). الأحلام. بغداد: مطبعة المعارف.
- عبود، مارون (١٩٧٥). رواد النهضة الحديثة. بيروت: دار الجيل.
- العبيدي، رشيد (٢٠٠٥). جميل صدقي الزهاوي: حياته وشعره. عمان: دار دجلة ناشرون.
- العزاوي، عباس (١٩٥٨). تاريخ الأدب العربي في العراق. بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي. ج ٢.
- كحالة، عمر رضا (١٩٩٣). معجم المؤلفين. بيروت: مؤسسة الرسالة. ج ٣.
- محفوظ، حسين علي (١٩٨٢). الزهاوي: دراسات ونصوص. بغداد: وزارة الثقافة والإعلام.
- مندور، محمد (١٩٨٨). المسرح الشعري والقصة الشعرية. القاهرة: نهضة مصر.
- هلال، محمد غنيمي (١٩٩٧). النقد الأدبي الحديث. القاهرة: دار نهضة مصر.
- الورددي، علي (١٩٧٩). لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. بغداد: مطبعة الإرشاد. ج ٣.
- يوسف، سعدي (١٩٧٨). أصوات شعرية من العراق. بغداد: وزارة الإعلام.